مكتبة مصر
تقدم
مجموعة محمد وصحبه

هذه وديعتك

إعداد أمير سعيد السحار



الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي بالفجالة

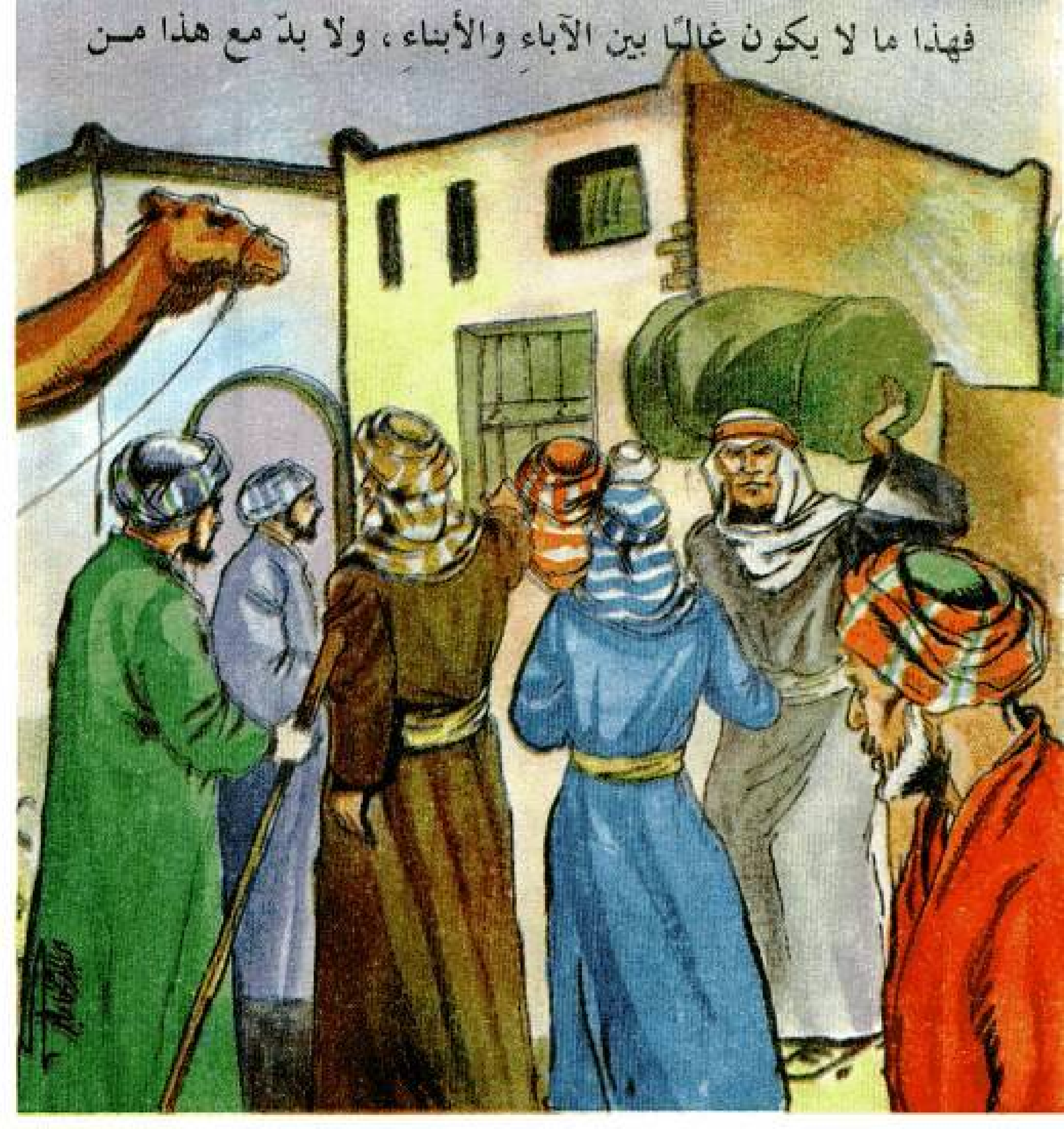
رسوم :
عبد الرحمن بكر

بينما كان عمرُ بنُ الخطابِ منهمكًا في توزيعِ العطايا والهباتِ على مستحقيها ، وهو فرِحٌ مسرورٌ بما يجدُ في هذه السبيلِ من عَناء ونصَبٍ ، لأنه يبعثُ في نفسِه بَردَ الراحةِ ، ويشعرُ بقيامِه بما يجبُ عليه نحوَ رعيّته ، التي وَلِي أمرَها ، وخشِي عاقبةَ التّقصيرِ في أمرِ هذه الولايةِ التي شرّفه اللّهُ بها .

وكيف لا يكونُ كذلك وهو خليفةُ رسولِ اللّهِ صلى اللّهُ عليهِ وسلّم ، الذى كانت حياتُه كلُّها وقفاً لخيرِ الإسلامِ والمسلمين ، ولم يهِنْ في هذا السبيلِ ، ولم يضعُفْ ، وإنما ظل حافظاً للعهدِ ، مرابطاً يقِظاً ، سعيداً بهذه الحالِ ..

وبينما كان عمرُ منهمكًا في التّوزيعِ والتّقسيمِ ، جاءه رجلٌ ومعهُ ابنٌ له، فنظرَ إليه عمرُ طويلاً ، وقد أخذ منه المنظرُ مأخذاً عظيمًا .. لم يكن الشّبَهُ بين الولدِ والرجلِ شبهاً معقولاً كما هو العادةُ في وجوهِ الشبهِ بين الآباءِ والأبناءِ ، وإنما كان شبهاً قوياً . إلى حد يملكُ عليك نفسَك ، ويجذبُ بصرَك نحو الوالدِ والولدِ ، ويربط عينَيْك إليهما فلا تكاد تصرِفُ عنهما الطّرْفَ بحالٍ من الأحوالِ ..

وكثيرٌ من الناسِ يكون الشبهُ كبيراً بينهم وبين آبائِهم ، أو بينهم وبين إخوانِهم ، بيدَ أنه لابدَّ من اختلافِ نتيجةِ أن الولدَ يجمع من والدِه ووالدتِه.. أما أن يكملَ الشبهُ فلا تكادُ تجد فرقًا إلا فى الكبرِ والصّغرِ ، وأن الوالدَ كبيرٌ والابنَ صغيرٌ ، فهذا ما لا يكون غالبًا بين الآباءِ والأبناءِ ، ولا بدّ مع هذا من





شبَهٍ بالأم ، أو بمَن هو من ذوي قُرباها . وإذا قيل : «الولدُ لخالِه» فليس معنى هذا أنه ليس فيه شبهٌ من والدِه . وإذا قيل كذلك : « البنتُ لعمّتِها » فليس معنى هذا أنها لا تُشبه أمّها .

وعمرُ بنُ الخطابِ عربيٌّ يفهمُ هذا ويدركُه ، ويعلمُ حقَّ العلمِ إلى أيِّ حدٍّ يشبه الأبناءُ الآباءَ ، وهو الرجلُ الذى لا يقفُ عند كلِّ صغيرةٍ أو كبيرةٍ ، وإنما يقفُ حيثُ لا مناصَ من الوقوفِ ، ولا مندوحةَ من التفكيرِ.. ولم يكتفِ عمرُ بالنظرِ والتطلعِ إليه فى صمتٍ وكفَى .

ولكنْ ما رآه ليس كما يراه النّاسُ فى العادةِ ويدركونه ، وخاصّةً وقد رأى من تعلُّقِ الولدِ بوالدِه ما أدهَشه ، ومن تعلقِ الوالدِ بابنِه ما جعله ينظرُ إليه ويطيلُ النّظرَ ، وقد شاعت فى وجهِه بَسمةٌ مضيئةٌ ، وأشرقَت فى نفسِه عاطفةٌ وضّاءةٌ يشعرُ بها كلُّ والد ، حينما يرى حبًّا متبادلاً بينَ والدٍ وولدٍ ، وأبٍ وابنٍ .. أجلْ ، لم يكتف عمرُ بالنّظر إليه فى صمتٍ ، ولكنه حادثَه فى حنانٍ وشفقةٍ قائلا :

ـ ما رأيتُ أحداً أشبهَ بأحدٍ من هذا بكَ .

وأشار إلى الولدِ فى رحمةٍ غامرةٍ ، وكأنما هو يريدُ أن يحملَه بين أحضانِه بدلاً منه ، وانتظر قليلاً ، فأجابه الرجلُ :

- هل أُحدّثك عنه يا أميرَ المؤمنين ؟

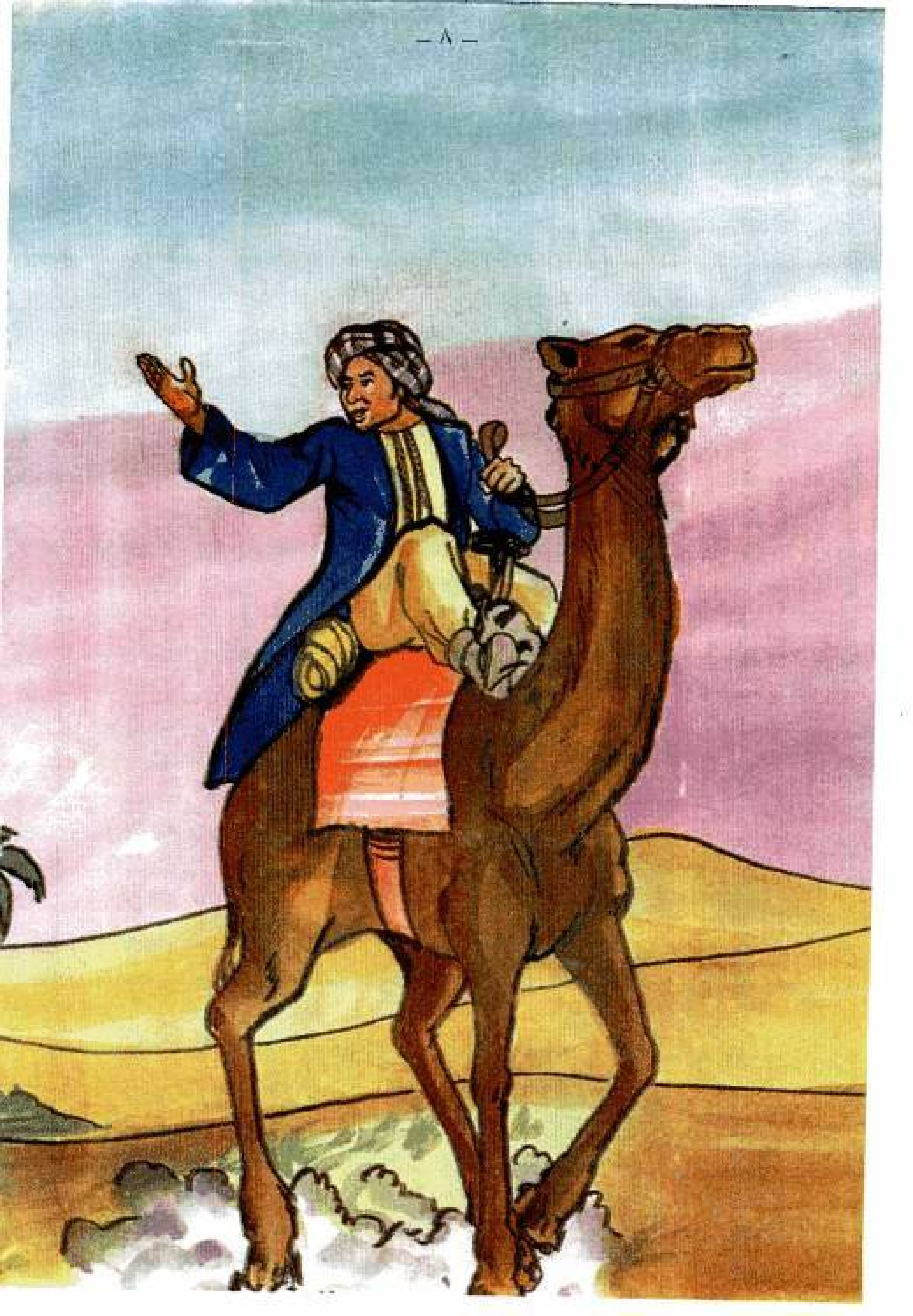
قال عمرُ فى لهفةٍ :

- قُل .

- كانت لى زوجةٌ أحبّها ، وأوثرُها على نفسى ، ويعلمُ اللّهُ أن حبّى لها كان بدافعٍ خفىٍّ غريبٍ ، أساسُه حبُّ الولدِ ، فكنتُ أرى أن الغايةَ من الزواجِ ليس هو المتعةَ فحسْب ، والصلةَ بين الزّوجين ، تقوى بينهما الأواصرُ ، وتنعقدُ الروابطُ ، على أتمِّ ما يكون بين شخصين ، وإنما هو للنّسلِ والذّراري التى تملأ البيتَ بركةً ورحمةً ، ورزقًا ونوراً .

وكانت زوجتى تعرفُ هذا عنّى ، وتفهمُه تمامَ الفهمِ ، ولم تبخلْ على نفسِها بالعنايةِ والرعايةِ حينما أحسّت بالحملِ ، وشعرت بالجنينِ يتحرّك فى أحشائِها ، فكان هذا التّعبُ الذى يشعرُ به غيرُها أساسَ سعادتِها ، ومَلاكَ متعتِها وفرحِها الغامرِ .





وظلت مدةَ الحملِ تثبُ من الفرحِ والغبطةِ كما يثب الغزالُ الشاردُ ، لا تجدُ وهَناً ، ولا يدركُها ضعفٌ ، حتى قرُبَ موعدُ الوضعِ .

واضطرَرتُ إلى سفرٍ ، ما منهُ مَفر ، لشدّةِ الحاجةِ إلى بعضِ الأشياءِ التى تعينُنى ، وتَدخل فيما لا يمكن الاستغناءُ عنه .. وحاولتُ صرفَ النظرِ عن هذا السفرِ الطويلِ ، فلم أتمكنْ من هذا ، فقلتُ فى نفسى : ولماذا أتجشّمُ هذا العَناءَ ، وأفكرُ فيما لا يصحُ أن أفكرَ فيه ؟ وماذا يفيدُها وجودى إذا أراد اللّهُ بها وبِمَن فى بطنِها ـ الضّر ؟ !

وأيقنْت أن اللّهَ سبحانه وتعالى أرحمُ بها ، وبِمَن فى بطنِها منّى ، وأننى لن أقدمَ لها ولوليدِها من الخيرِ إلا ما يُجريهِ



سبحانه على يدى ، فإذا لم أكنْ بجانبها فإنه سبحانه وتعالى سيُيسّرُ لها من يكفيها أمرَها ، ويوفرُ لها حاجتَها . ويقضى لها ما تريدُ .

وتجهزتُ لهذا السفرِ الذى أريدُه ، وعند ما أردتُ الخروجَ من الدارِ ، قالت لى زوجتى فى ضَراعةٍ واسترحامٍ :

- أتخرجُ وتدعُنى على هذه الحالِ ؟ أعانى من آلامِ الحمَلِ ما أقاومُه بالفرحة الغامرةِ ، وأداريه بالأملِ القريبِ .. وإنك إذا خرجتَ إلى سفرِك فسيجتمعُ عليَّ ألمان ، ألمُ الحزنِ لفراقِك، وألمُ الحملِ ، وما أشقَّ آلامَ الحملِ حينما أضعُفُ بالتفكيرِ فى بعدِك ، إنها لتنهش القلبَ ، وتلذعُ الفؤادَ ، وتوهنُ القوى ، فلن أكونَ كما تعرفُ نشاطاً وعزمًا وحزمًا ، بل سرعانَ ما يسودُ الخمولُ والوجومُ .

وأحسستُ لقولها صدًى فى نفسى ، وخفتُ أن يؤثّر عليها الفراقُ فيتأثرَ الجنينُ ، وربما أضرَّ به هذا إلى حدٍّ كبيرٍ ، ولكن سرعانَ ما ألهمنى اللهُ الجوابَ ، فما أيسرَ أن تُلقيَ بحملك فى أمانةِ اللهِ ، الذى يرعَى ما يُؤتَمنُ عليه رعايةً تامةً ، ويحفظُه



لكَ على خيرِ ما تصبو إليه نفسُك .

ـ أَستودعُ اللَّهَ ما فى بطنِكِ .

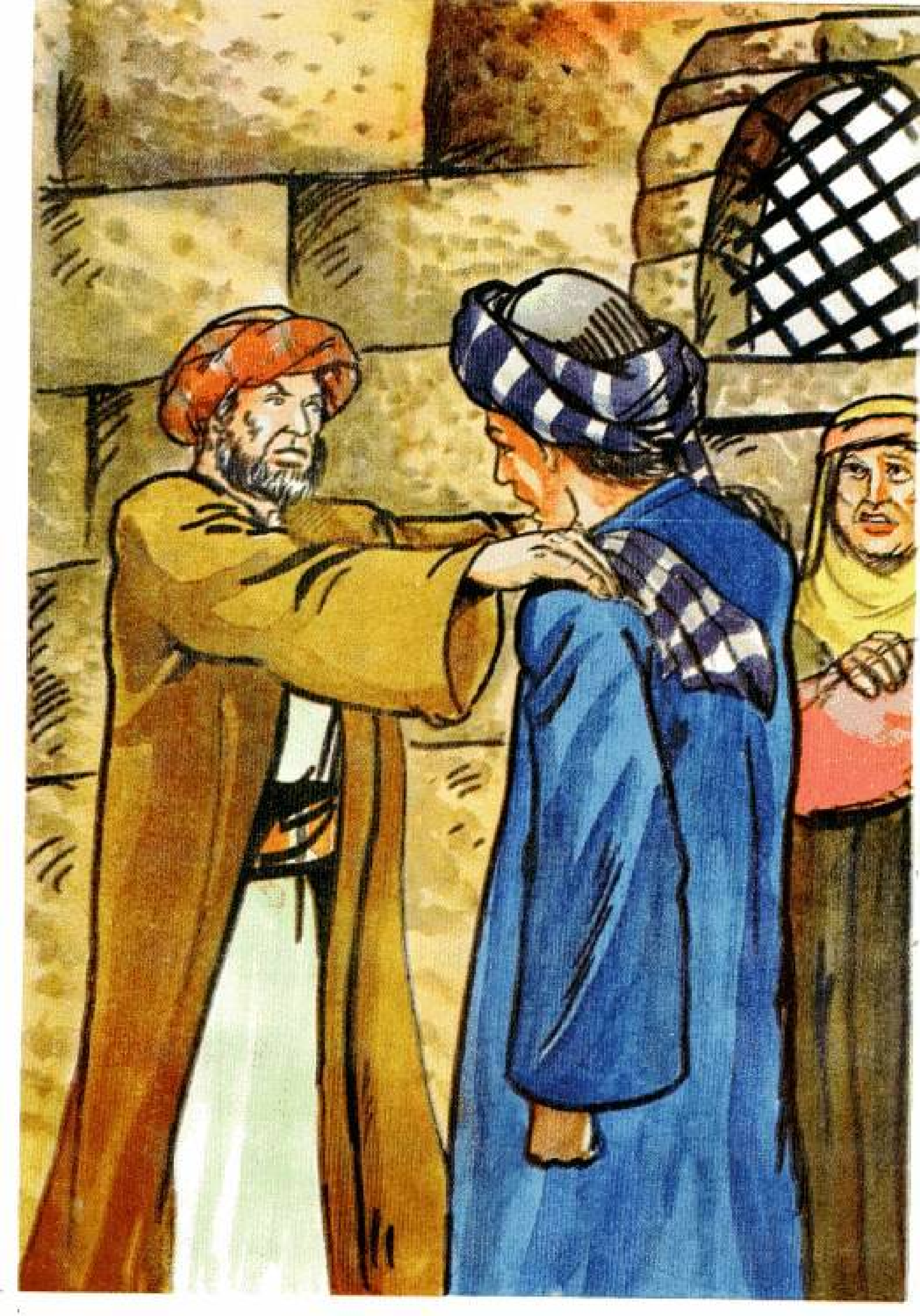
وكأنما وقعت هذه الجملةُ برداً وسلامًا على زوجتى ، واستشعرتْ عظمةَ اللهِ وجلالَه ، وأن رعايتَه أتمُّ وأوفى من رعايتى لها ولجنينِها ، فهدأَت نفسُها الجيّاشةُ ، واطمأنّ فؤادُها المضطربُ ، وأمِن قلبُها الخائفُ ، وقالت فى هدوءٍ وحنانٍ :

ـ فى سلامةِ اللّه ذَهابُك وأوبتُك .

* * *

ومضَيتُ إلى وِجهتى ، هادِئَ الخاطرِ ، مرتاحَ الضميرِ ، لا أفكّرُ إلا فى الجنينِ الذى استودعتُه اللّهَ ، ولم أفكرْ مرّةً واحدةً فى زوجتى التى تحمله فى بطنِها وهْناً على وهنٍ ، ولستُ أدرى سبباً لهذا ، ولكن الواقعَ ما أُقرِرُه وأحكيه كما هو .

وطال السفرُ ، وطال غيابى عن زوجتى وانقطعتْ أخبارُها عنّى ، وأخبارى عنها ، فليس من اليسيرِ أن تتَصل الأخبارُ فى الصّحارى والقِفارِ ، إلى أن أذنَ اللّهُ بانقضاءِ مدةِ السّفرِ ، وقضيتُ ما كنتُ أريدُ قضاءَه ، ثم عدتُ إلى بيتى ، وكلّى



أملٌ أن أرى ولداً تركتُه في رعايةِ اللّه وكَنَفِه ، وهذا ما وقع، فما كدت أصلُ حتى سألتُ عن ولدى الذى كان جنيناً حين رحيلى فأُخبرتُ بموت زوجتى ، وأنها تركتْ لى هذا الولدَ !

وعدتُ إلى صوابى حينَ ذاك ، ولم تتم الفرحةُ ، فهذه المرأةُ كنت أحبّها، وأوثرُها على نفسى ، فهى طيّعةٌ إلى أبعدِ حد ، تعرف حقَّ الزوجِ على أكملِ وجهٍ ، وتعملُ لكل ما يرضاه ألفَ حسابٍ وحسابٍ .

وهنا أحسَستُ كأنما ضاقَ صدرى ضيقاً أظلمَت معه جوانبُ الحياةِ الرّحبةِ ، فلا تكادُ تتنفّسُ أو تشعرُ بلذاذةِ الهواءِ ، وجمالِ النسيمِ .

ودَمعت حينذاك عيناىَ ، ولكنها دموعٌ غزيرةٌ حارّةٌ ، خِلت أنها لذَعت خدّى ، وقرحت جفنى ، وطاف بى طائفٌ غريبٌ ، وكأنما أسمعُ صوتًا لا أتبينُ حقيقةَ أمرِه ، فأصَختُ فى انتباهٍ وروعةٍ ، وأنا أردّد فى نفسى : واللّهِ لقد كانت صوامةً قوّامةً.. وإن فقدَها لخسارةٌ.. وفجأةً استمعتُ إلى صوتٍ خافتٍ، ولكنّه واضحُ النّبراتِ ؛ وكأنما هو مَلَك من ملائكةِ السّماءِ :



ـ إن هذا الغلامَ وديعتُك ، ولو كنتَ استودعتَنا أمَّه لوجدتَها .

وانقطعَ الصوتُ ، ولم أعُدْ أسمعُ شيئاً ، وهنا أحسستُ بحُرقةٍ تكوي قلبي وفؤادي ، فلقد ذكرتُ أنني لم أستودعْها اللّهَ .. وإنما استودعتُ اللَّهَ ما في بطنِها فحسبُ ، وهذا كان كلَّ همّي عندما همَمْتُ بالسفرِ !

وصمت الرَّجلُ مطرقاً مفكرًا !

وصمت عمرُ احترامًا لصمتِه وتفكيرِه ، ثم قال مُسلياً له ، ومرفِّهًا عنه بعضَ ما يجدُ من حُرقةِ الفِراقِ ، ومرارةِ الأسى واللوعةِ :

ـ إنه لأَشبهُ بك من الغرابِ بالغرابِ !

فتبسّم الرجلُ ، ومضى يحملُ ابنَه .. وبَقِيَ عمرُ راثياً لحاله ، داعياً له بالصّبرِ والسّلوانِ .. !

